الباشا حارس الأماكن المقدسة

ولنترك الباشا في القلعة، ونتوجه إلى حارة الصناديقية حيث يجلس الشيخ الجبرتي في صحن داره مع ابنه خليل، يحاول أن يُلم بما يحدث ليدونه في كتابه الشهير، ويسأله ابنه خليل:

– ما طبيعة ما يحدث في الحجاز وتلك الاضطرابات التي أرسل الباشا جيشاً للقضاء عليها يا أبي؟ ومن الشيخ محمد بن عبدالوهاب الذي يتحدثون عنه؟

– لقد أخبرني يا بني من عادوا من الحج، أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن على بن محمد بن أحمد بن راشد التميمي قد وُلِد سنة ١١١٥هـ/ ١٧٠٣م في بلدة العيينة، الواقعة في شمال الحجاز، ونشأ على حب العلم، فطلبه منذ صغره، وأظهر نبوغًا وتميزًا؛ فحفظ القرآن الكريم ودرس الفقه الحنبلي والتفسير والحديث ورحل في طلب العلم، وعندما رجع إلى حريملاء ببلاد نجد، بدأ دعوته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والاشتغال بالعلم والتعليم، والدعوة إلى عقيدة التوحيد الصافية، وحذر من الشرك ومخاطره وأنواعه وأشكاله.

– إذن، فما المشكلة يا أبي؟ فأنا لا أجد حتى الآن فيما قلته ما يثير القتال أو العنف؟

- بدأت الاضطرابات يا بني، عندما استطاع محمد بن عبد الوهاب أن يتحالف مع الأمير محمد بن سعود، الذي قام بماله ورجاله من أجل دعوة التوحيد، وكان هذا التحالف على أُسُسٍ متينة، واستطاع الشيخ أن يواصل دعوته للناس بالتعليم والرسائل والوعظ، يدعو إلى إزالة المنكر، وهدم قباب القبور، وسد ذرائع الشرك، وتحقيق العبودية لله وحده، وظلت الدعوة مسالمة متأنية، تطرق القلوب برفق وأناة، وتدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ولكنه رأى أن اللين يُقابل بالشدة، وأن الصدق يُقابل بالكذب، والموعظة الحسنة يُرد عليها بالمؤامرات..

- لهذا لجأ إلى العنف يا أبي؟

- أجل يا بني..

- ولكن لماذا لم يُرسل إلى الدولة رسائل توضح ما يحدث، ويشرح رأيه الفقهي فيه لتعينه على دعوته بشكل شرعي؟

- لا أعرف يا بني أفعل ذلك أم لا؟ ولكن المعروف أنه قرر بمعاونة الأمير محمد بن سعود أمير الدرعية أن يدافع عن دعوته بالقوة، وحققت الدعوة نجاحًا كبيرًا، وبعد وفاة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، واصلت الدعوة مسيرتها وساندها آل سعود بقوة السلطان وتحولوا إلى الحجاز.

- فمتى سيطروا على مكة يا أبي؟

- في عام ١٨٠٣ م دخل السعوديون مكة، وبعدها بعامين ضم السعوديون المدينة المنورة، وقامت بالفعل الدولة السعودية التي تأسست على أسس سلفية، وبلغت الدولة في زمن سعود بن عبد العزيز منتهى القوة، وخضع لها معظم شبه الجزيرة العربية.

- فمن الذي تصدى لهذه الدعوة يا أبي؟

- قام الذين اعتقدوا بالبدع والخرافات على أنها من دين الإسلام بالتصدي لدعوة الشيخ ومقاومتها، وليست هذه المقاومة من جهة واحدة، أو من طرف معين، بل من كل الجهات ومن كل الأطراف، أتت من قبل المشايخ الذين يتمسكون بالنفوذ الذي يعطيهم إياه العامة وأهل الجهالة، ويبغون المحافظة على ما هم عليه من البدع والخرافات ظانين أنها من الدين، وأتت من سدنة القبور، وأتت من المستفيدين من صناديق النذور، وأتت من الذين يعيشون على الأطعمة والأموال التي تقدم لهم في موالد الأموات والزيارات، وأتت أيضًا من الذين يعتقدون أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد أتى بدين جديد يخالف ما اعتادوا عليه، وأولئك كانوا منتشرين بأنحاء الدولة العثمانية كلها وفي العالم الإسلامي أجمع.

- ولكن لماذا منع الوهابيون الحج يا أبي؟

– كان الوهابيون يمنعون أي وفد من وفود الحجيج يأتي بالطبل والزمر والموسيقى يا بني، أما من يأتي للحج بأسلوب عادي وطبيعي، فلا يمنعونه من الحج، ولكن أُشيع أن الوهابيين قد منعوا الناس من الحج.

– لذلك يا أبي أرسل الخليفة العثماني جيوشًا للقضاء على السعوديين والدعوة الوهابية؟

– أجل يا بني، ولكن جميع محاولات الباب العالي قد فشلت في القضاء عليها، فطلب من أفندينا محمد علي احتواء هذه الحركة، وها هو الباشا قد أرسل جيشًا من مصر لمحاربتها.

وهكذا قامت الحرب بين محمد علي والوهابيين، ودارت معارك عديدة تخلص فيها محمد علي من معظم الجنود غير النظاميين، وسافر بنفسه في إحدى مراحل الحرب إلى الحجاز، تاركًا في مصر محمد بك لاظ نائبًا عنه، ولقد بدأ هذه الحرب طوسون باشا واستكملها بعد ذلك إبراهيم باشا، وقد سجل الجبرتي ما وصلته من أخبارها، ويبدو أنه كان متعاطفًا مع الوهابيين.

وانتهت الحرب الوهابية بانتصار الجيش المصري، وبسط نفوذ مصر في بلاد العرب، وكانت هذه الحرب من أشق حروب مصر في عهد محمد علي وأكثرها ضحايا، وأعظمها نفقات، وقد تخللها هزائم ومواقف عصيبة كادت تقضي على الحملة المصرية، فإن الجيوش التي جردها محمد علي استُهْدِفت للخطر في مواطن عدة، وخاصة في هزيمة "الصفراء" الأولى

وحصار "الرس"، عندما استعصت على إبراهيم باشا وفي حصار الدرعية، وعندما التهمت النار ذخائر الحملة تحت أسوارها، ففي تلك المرات الأربع، كادت الحملة المصرية تقع في الأسر، لولا أن القيادة الوهابية كان يعوزها الحزم والكفاية والنظام، ومن الأسباب التي أدت إلى اضمحلال قوة الوهابية ضعف عبد الله بن سعود الذي تولى القيادة بعد والده في أثناء الحرب، والأموال التي بذلها طوسون وإبراهيم ومحمد علي واشتروا بها ذمم البدو، فإن القبائل التي انحازت إلى جانب الجيش المصري قد عاونته معاونة كبيرة. وكان من شروط استسلام الدرعية عاصمة السعوديين أن يتم المحافظة عليها وتأمينها، ولم يفِ محمد علي بعهود ابنه إبراهيم في شروط الصلح؛ فأرسل إليه قبل مغادرته الحجاز يأمره بهدم حصون الدرعية وأسوارها، وتخريب منازلها وأن يرسل إلى القاهرة إخوة عبد الله بن سعود الذي تم قتله بالأستانة، فنزل إبراهيم على أمر أبيه؛ وأرسل إخوة ابن سعود، وخرب الدرعية وأحرقها، وقد استمرت الحرب الوهابية من سنة ١٨١١م إلى سنة ١٨١٩م. وعاد إبراهيم باشا من حروبه بالحجاز منتصرًا، وأقدم عليه جميع الناس من كبار رجال الدولة ليهنئوه بالعودة والنصر.

ويقول الجبرتي عن ذلك:

"إن إبراهيم باشا رجع من هذه الغيبة متعاظمًا في نفسه جدًا، وداخله من الغرور ما لا مزيد عليه، حتى إن المشايخ لما ذهبوا للسلام عليه والتهنئة بالقدوم وأقبلوا عليه، وهو جالس في ديوانه، لم يقم لهم ولم يرد عليهم السلام، فجلسوا وجعلوا يهنئونه بالسلامة، فلم يجبهم ولا بالإشارة."

أما الباشا، فكان في تلك الفترة يحاول جاهدًا تنفيذ خطة تصنيع كاملة للسفن والمدافع والمعدات، ويقوم بإصلاحات كبيرة في مصر لتوفير كثيرٍ من الأموال، كما استغل حركة السفن التي تقوم بتصدير القمح في استيراد جميع مستلزمات التصنيع، وأستجلب له صديقه دروفيتي من فرنسا كل من يحتاج إليهم من خبراء في جميع المجالات. وكي يتمكن الباشا من تنفيذ مشاريعه الكبرى بالعاصمة كالمصانع والمدارس وما إلى ذلك من أسس الحضارة والنهضة، قرر إبعاد الجنود عن القاهرة وتوزيعهم في مختلف أنحاء الوجه البحري، حتى لا يكون احتشادهم في القاهرة خطرًا على النظام، ولكي يلقي في روعهم أنه لا يقصد تشتيتهم أو معاقبتهم، أمر أن يصحبهم في معسكراتهم الجديدة بعض أبنائه ورؤساء جنده، فتولى طوسون باشا قيادة بعض تلك الفرق، واتخذ معسكره في برنبال الواقعة بالبر الشرقي للنيل تجاه رشيد، والتمس بها الراحة من عناء المعارك التي خاضها في الحجاز، وأخذ معه الموسيقيين والراقصين والراقصات والمغنيات ومجالس اللهو.